الفصل الثالث عشر

كوتاهية

اشتهرت قونية بأنها « مهد الدولة العثمانية القديم[١] » . وقد عرف إبراهيم ذلك ، وشعر بأهمية النصر الذى أحرزه فيها ، ومبلغ تأثيره فى شعور العثمانيين . ولكنه لم يضرب على هذه النغمة فى الخطاب الذى كتبه إلى محمد على فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ ، بل حصر اهتمامه فى الناحية السياسية لهذا النصر . وكان يعرف أن القناصل يضيقون الخناق على أبيه ، ولذلك اغتنم هذه الفرصة ليكرر له وجهة نظره فكتب إليه يقول :

« إن الصدر الأعظم الآن مع الجيش ، وفى وسعنا أن نزحف على الآستانة ونخلع السلطان على الفور من غير عناء ؛ ولكننى أحب أن أعرف بأسرع وقت هل ترغبون حقاً فى تنفيذ هذه الخطة ، لأن تنفيذها يتطلب الاستعداد له من الآن . أما أنا فأعتقد أن مشاكلنا يجب أن تسوى فى الآستانة لا فى غيرها من الأماكن ؛ ففى الآستانة إذن يجب أن نكون لكى نملى إرادتنا ونحقق مطالبنا ؛ وأرجو أن تسمحوا لى بأن أصرح الآن بأن الدعاية ليست هى السبيل إلى الوصول إلى هذه المطالب ؛ فإذا كان فى نيتكم أن تهدد الآستانة ، فلا فائدة من الوقوف عند قونية ومنعنا من الزحف عليها .

« ذلك بأن قونية بعيدة عن الآستانة ؛ وأن أولى الأمر فيها لا يجنحون للسلم

(١) دون فى كتابه « بعثة البارون بوالكنت » السالف الذكر ص ٦ .

ويعقدون الصلح معنا إلا إذا دخلنا العاصمة . ولا أخالكم قد نسيتم أنهم لم يعقدوا الصلح مع الروسيا إلا بعد أن وصلت جيوش القيصر إلى چكمه جه[1] فى جوار الآستانة ؛ ولذلك يجب علينا أن نسرع بالتقدم إلى بروصة على الأقل ونحتل البلاد الواقعة على ساحل بحر مرمرة ، ونتخذها قواعد بحرية لتموين جيشنا . وإذا وصلنا إلى ذلك المكان سهل علينا نشر الإشاعات التى تؤدى إلى إسقاط السلطان . وحتى إذا عجزنا عن خلعه فإننا لن نعجز عن إملاء شروط الصلح التى نرغب فيها » .

وقد أفرغ إبراهيم فى هذه الرسالة من قلبه على قلمه ، ولم يمنعه إجلاله لأبيه من أن يضيف إليها هذه العبارة :

« لولا الأمران اللذان صدرا إلىّ منكم أخيرا ووقفتم بهما زحفى لكنت الآن على أبواب الآستانة ؛ ولطالما سألت نفسى عن سبب هذين الأمرين أهو خوف أوربا أم سبب آخر لا أعلمه ؟

« وأرجو أن يصلنى رأيك فى هذه المسألة الأخيرة قبل أن تضيع الفرصة السانحة ؛ وإنى لفى انتظار أوامركم الصريحة »[2] .

ولم تقف الحكومات الأوربية مكتوفة الأيدى حينما كان إبراهيم يدافع عن رأيه هذا الدفاع ؛ بل بدأت هذه الدول حملتها قبل أن يهزم رشيد باشا فى موقعة قونية . فاستقبل السلطان فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٣٢ رسول القيصر الخاص الجنرال موراڤيڤ Muraviev فى جوسق يلدز ؛ وأبلغه فى هذا الاجتماع أن القيصر نيقولا Nicholas يضع أسطوله تحت تصرف الباب العالى ليرجع به محمداً

(١) إحدى ضاحيتين بهذا الاسم وهما بيوك چكمه جه (الكبيرة) وكوچوك چكمه جه (الصغيرة) . المعرب

(٢) المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

عليا إلى صوابه ؛ ويظهر أن الآستانة لسبب لا نعرفه كانت تجهل وقتئذ أن الصدر الأعظم قد هزم . كذلك يلوح لنا أن هناك خطأ فى التواريخ ، ولكنها تواريخ رسمية لا يسعنا إلا قبولها . ومهما تكن حقيقتها فإن السلطان قد ظل حتى يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ يجهل أن جيشه قد ذهبت ريحه ، وأن لا قوة عثمانية تستطيع أن تمنع إبراهيم من أن ينقض على الآستانة .

ومع أن محموداً مسلم يؤمن بقضاء الله وقدره ، فقد استولى عليه الرعب حتى ظن أنه سيسمع عما قليل دوى المدافع تطلق على إسكدار . وكتب متولى أعمال السفارة الفرنسية إلى وزارة خارجيته فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ يقول إن السلطان قد ارتعدت فرائصه فزعا ، فألقى بيديه إلى التهلكة[1] ، إذ أرسل من فوره رسولاً إلى السفارة الروسية ينبئها بقبول ما عرضه عليه القيصر ، دون أن يستشير رجال ديوانه . وجاء هذا القرار ضغثا على إبالة ، فتعقدت الأمور بسببه ، واستاء منه الوزراء وعدوه ماسا بكرامتهم ، لأنهم لم يستشاروا فيه قبل صدوره . وقد يكون سبب استيائهم أن السلطان أضاع عليهم فرصة تمكنهم من أن يهدئوا مشاعرهم الثائرة بنفحة من الروبلات الروسية .

وهاج هائج القائم بأعمال السفارة الفرنسية حتى كاد يطير لبه من شدة الغضب ؛ وعرف أن أمير البحر روسن Roussin قد عين سفيرا فى الآستانة ، وخشى أن تعزو وزارة الخارجية الفرنسية عمل الروسيا إلى إهماله ، فيضر ذلك بمستقبله ، لاسيما وهو يوشك أن يستبدل به غيره . وكان هو وطنى النزعة ، وكانت وطنيته هى الوطنية الفرنسية أى الوطنية الحادة المتطرفة ؛ ولذلك أخذ هو أيضاً ينظر إلى المسألة نظرة واسعة ويفكر فى المصالح الفرنسية الهامة التى تتأثر بهذا الموقف ؛

(١) دون فى كتابه « بعثة بوالكنت » ص ٩ .

فرأى أن شخصية محمد على أصبحت فى المكانة الثانية ، وأن المسألة المصرية قد غطت عليها مسألة أخرى أعظم منها خطرا ، تلك هى : « هل يسمح للروسيا بأن تكون الحاكمة بأمرها فى الآستانة ؟ » .

وسرعان ما وافقت الحكومة الفرنسية على هذه الفكرة التى ارتآها على عجل البارون ده ڤرن Baron de Varenne الشاب الذى كان يتولى مؤقتاً حماية المصالح الفرنسية لدى الباب العالى . وأسرع الدوق ده بروجلى الذى كان يعرف الأمور فى الكى دور ساى[1] فكتب إليه يقول :

« إن الدولة العثمانية تمحى من الوجود إذا دخل الجيش الروسى أرضها وانتشر فيها ، بحجة رد محمد على عنها ؛ وأطلقت الحرية للأسطول الروسى يخوض عباب الدردنيل والبسفور ، ويرسو تحت أسوار السراى . ولا تستطيع الدول الأخرى و بخاصة فرنسا و إنجلترا أن تقف مكتوفة الأيدى ، تنظر إلى السلطان وهو يتخلى عن سيادته ، دون مبالاة أو مقاومة »[2] .

وفى الوقت الذى كانت فرنسا تبلغ فيه محموداً بأنها لا تسمح للروسيا بأن تكون صاحبة الأمر والنهى فى الآستانة أمر ميمو قنصل فرنسا العام فى الإسكندرية أن يبلغ محمداً عليا :

« أن الدول لا تتردد فى أن تقف قواتها مجتمعة فى وجه محمد على لترغمه على أن يبحث مع الباب العالى شروط الصلح ؛ وذلك فى نظرها خير من سماحها للروسيا بأن تتدخل فى شؤون الآستانة ، فتستطيع بذلك جيوش القيصر أن تتوغل فى آسيا الصغرى ، وتمكن نفوذه فى السراى السلطانية »[3] .

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية .
(٢) بعثة بوالكنت ص ٤ .
(٣) بعثة بوالكنت فى نفس الصفحة .

ولم يقف الفرنسيون عند هذا الحد ، بل فعل ده ثرن أكثر من هذا بفضل ما أوتى من مقدرة وكفاية ، وإن كان من الصعب على الرجل الدبلوماسى أن يبرم أمرا فى الوقت الذى ينتظر فيه قدوم خلفه ، وذلك لأن موظفى وزارات الخارجية لا يرمقون بأعينهم إلا صاحب المنصب الجديد ، أما الموظف القديم فإنهم لا يأبهون له . وكان كل من فى الآستانة وقتئذ يعلم أن أمير البحر روسن سيحل محل ده ثرن ؛ ومع ذلك فقد أوتى ده ثرن من الكياسة والمهارة فى أعمال منصبه ما جعله يُفهم الوزراء الأتراك أن الواجب عليهم أن يحاولوا إقناع السلطان برفض ما عرضته عليه الروسيا . وبلغ من إلحاح السر عسكر خسرو باشا على محمود ونصحه له بأن لا تفتح تركيا أبوابها لعدوتها الوراثية ، أن جثا على ركبتيه أمام مولاه وأخذ يؤيد مطلبه بقوله إنه يتكلم باسم الديوان كله[١] .

وأكبر الظن أن موراڤيف وصلته أنباء هذه الدسائس كلها ؛ فأراد أن لا تفوته الفرصة السانحة . ولذلك أسرع فى الذهاب إلى الإسكندرية لكى يبلغ محمداً عليا أن الروسيا ستتدخل فى الأمر إذا واصل إبراهيم الزحف ، أو أبت الإسكندرية أن تذعن لما لا بد من الإذعان له . وأرسل موراڤيف قبل سفره أحد رجاله المدعو الكولونل دوهامل Duhamel إلى معسكر إبراهيم ليبلغه نفس هذه الرسالة[٢] . ولكن هذا العمل لم يفل من عزيمة ده ثرن والسر عسكر والوزراء الآخرين ، بل قابلوا هجوم مراڤيف بهجوم آخر مثله ليحبطوا به عمله . وما زالوا بالسلطان حتى أرسل من قبله رسولاً خاصا إلى محمد على . وكان هذا الرسول هو خليل باشا ، القبطان باشا السابق ، وهو رجل ذو شخصية رائعة ؛ وكانت مهمته أن

(١) المصدر عينه ص ١٦ .

(٢) كدلڤين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٣٨ .

يبلغ التابع الصنديد عفو السلطان عنه ، واعترافه بولايته على عكا وملحقاتها .

ولم ينس ده ثرن قلمه فى ذلك الوقت ، بل كتب إلى محمد على رسالة شخصية أكد له فيها أن « خليلا باشا قد فوض إليه رسميا أن يسوى المشاكل جميعها ، وأن يعمل على إزالة ذكريات الماضى السيئة[١] » . ولم يغفل ده ثرن أمر إبراهيم بل كتب إلى بطل قونية يقول :

« لم يبق الآن ما يبرر مواصلة القتال ، ولذلك أرجو أن تعلموا أن تبعة ما يسفك من الدماء ستقع على من يبدأ بالعداء . ولما كانت الحرب ستضاعف الصعاب القائمة فى سبيل التسوية المعروضة على بساط البحث الآن ، فإنكم سترون من المناسب أن تقفوا زحفكم وتأمروا الضباط التابعين لكم ، بأن يحذوا جميعاً حذوكم[٢] » .

وتسلم ده ثرن رد إبراهيم فى السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٣٣ . ولم نطلع على الصورة الأصلية لهذا الرد ، ولكنا نعلم من التقرير الذى أرسل إلى باريس أنه أجاب بقوله إنه لا يستطيع أن يقرر شيئا حتى يتلقى أوامر أبيه ، وإنه يرجو الباب العالى أن يسمح له بأن يقضى الشتاء فى بروصه ، وإن هدفه الثانى هو كوتاهية[٣] . وارتعدت فرائص السلطان فزعاً لهذا الرد ، فلجأ إلى وسائله القديمة ، وأرسل من فوره رسالة إلى السفير الروسى ليطلب إلى القيصر أن يستعد بجيوشه فى بلاد القرم وعلى ضفاف الطونة ، لتقديم المعونة له إذا تقدم إبراهيم بجيشه . وقد فعل ذلك من تلقاء نفسه ومن غير أن يستشير وزراءه . وقابل ده ثرن هذه الحال الطارئة بنشاطه المعهود . ولما تباحث فى الأمر مع الريس أفندى

(١) دون فى كتابه « بوالكنت » ص ١٦ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الوضع .
(٣) المصدر عينه فى نفس الصفحة .

الذى كان محمود قد ضمه إلى رأيه ، أجابه هذا الجواب المريك :

« إما أن تضمن لى عدم تقدم إبراهيم و إما أن توافق على أن نلجأ من فورنا إلى الروسيا . وليس فى الوقت متسع للأخذ والرد ، فإن فى استطاعة إبراهيم أن يصل إلى أبواب الآستانة بعد خمسة عشر يوماً ، ولا يستطيع الروس أن يبلغوها فى أقل من هذا الوقت »[١] .

ولما رأى دى ثرن نفسه فى هذا المركز المستصعب ، وكان يعرف أن أمير البحر روسن يوشك أن يصل إلى الآستانة ، دفعته شجاعته إلى أن يضمن للريس أفندى طلبته ، أو بعبارة أصح وعد أن يكتب إلى إبراهيم رسالة لا يشك فى أنها ستؤدى إلى الغاية المطلوبة . وبادر إلى ذلك من فوره فأرسل مذكرة إلى إبراهيم مؤرخة ٣٠ يناير سنة ١٨٣٣ ، أوضح له فيها أنه إذا لم يقف الجيش المصرى عن التقدم فإن « الباب العالى سيضطر وهو آسف كل الأسف إلى أن يقبل المساعدة التى تعرضها عليه الروسيا » .

وقد أخطأ ده ثرن خطأ كبيراً حين كتب هذا الخطاب . ولا شك فى أن الذى دفعه إلى ذلك هو حرج مركزه ؛ فقد كان إبراهيم وروسن كلاهما يجد فى السير إلى الآستانة ، وتلك حال توقع فى الخطأ كل إنسان ، حتى الرجل الدبلوماسى الذى حنكته تجارب المنصب ، ولذلك يجب علينا أن لا نفرط فى لومه . لكنه كان يجب عليه أن يعلم أن إبراهيم لا يخشى القيصر ولا ترهبه جيوشه ، وأن القوة الوحيدة التى تستطيع وقفه هى أوامر أبيه . فإذا قيل له إن الروسيا توشك أن تتدخل فى الأمر ، كان ذلك بمثابة أمر له بالإسراع فى زحفه ، و إشعاره بأن تباطؤه يعرضه لأشد الأخطار ، وأن الواجب يقضى عليه بأن يصوب مدافعه

(١) المصدر عينه ص ١٧ .

إلى قصر السلطان قبل أن يصل الروس إلى الآستانة .

على أن إبراهيم بدأ زحفه قبل أن يصله هذا الخطاب . فلما وصل نبأ هـذا الزحف إلى السلطان اصطـكت له مسامعه ، فاتصل بالسفارة الروسية وطلب فى هـذه المرة إلى المسيو ده بوتنيف M. de Boutenieff سـفير القيصر فى الآستانة أن يمده بأسطول عليه خمسة آلاف من الرجال ، يلقى مراسيه فى القرن الذهبى ، وأن يعد فوق ذلك حملة حربية يتراوح عددها بين خمسة وعشرين وثلاثين ألفاً[1] ؛ وأمر محمود الرسول بأن يبقى فى السفارة حتى تصدر الأوامر لإحدى السفن بالسفر حاملة تلك الطلبات المستعجلة .

وبينما كانت هذه الرسالة رسلة « أدركنى ولما أمزق »[2] تمضى فى طريقها إلى الروسيا لا تعطف على شىء ، كان إبراهيم على بعـد خمسين ساعة أو نحوها من الشاطئ الأسيوى المواجه للآستانة . وهناك كتب رده على الرسالة التى بعث بها إليه ده ثرن فى ٣٠ يناير . وهاك ما كتبه إلى القائم بأعمال السفارة الفرنسية :

« صديقى النبيل العالم المحب الفطن المسيو ده ثرن » . وبعد أن قال له إبراهيم إنه تلقى رسالته المؤرخة ٣٠ يناير سنة ١٨٣٣ وعرف ما انطوت عليه من محبة وصداقة ، ذكر له أن السبب فى رحيله من قونية وسيره إلى بروسة أن أول المكانين لا يصلح لقضاء فصل الشتاء ، ثم ختم خطابه بقوله : « وقد وصلنا الآن إلى كوتاهية حيث تطيب لنا الإقامة فى الشتاء . وسأتى بها إطاعة لأمر أبى وولى نعمتى ، حتى أتلقى منه أوامر أخرى . وقد أبلغت ذلك إلى الباب العالى ، ورجائى

(١) كدتفين وبرو ص ٣٥٠ .

(٢) فى الأصل الإنجليزى « أدركنى ياكسيس ولما أغرق » وهى مأخوذة من وصف كاسيس ليوليوس قيصر فى رواية شيكسبير . (المعرب)

أن أكون قد حققت رغائب سعادتكم لأن ذلك يبعث السرور فى نفسى »[١].

وتبين من هذا الخطاب أن لا فائدة ترجى من مفاوضة إبراهيم . نعم إنه كان رجل حكم وإدارة ، كما كان رجل حرب وكفاح ، لكن موقفه من الأعداء والمحايدين كان موقف الجندى فحسب ، شعاره الوحيد « الطاعة » تلك الطاعة العمياء الصماء التى لا تشوبها شائبة ، والتى كان يعنيها شلر بقوله : « على واجب أؤديه لا رأى أبديه » . فكان الواجب على ده ڤرن والحالة هذه أن يحرك من سكون محمد على ، وإلا سارت الأمور سيرها الطبيعى .

ولم يكن ذلك ليغيب عن عقل الدبلوماسى الفرنسى ، ولذلك لم يدخر وسعاً فى الضغط على الباشا . ولكن الباب العالى لم يكن مع الأسف مخلصاً صادقا فى عمله ؛ وآية ذلك أن التفويض الذى أعطاه خليلا باشا لم يكن التفويض الشامل الذى لابد منه فى مثل هذه الأحوال . فلما تمكن خليل ومحمد على من وضع مشروع للتسوية ، كان لابد أن يقره السلطان ، لأن المهمة التى انتدب لها قد حددت تحديداً لا يجيز له قبول تلك التسوية . ولكن على الرغم من هذا لم ير ده ڤرن حرجا فى أن يكتب بتاريخ ١٣ يناير سنة ١٨٣٣ من الإسكندرية إلى وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية فى الآستانة يقول :

«لقد وضعت الحرب أوزارها ، وخبت نيران القتال فى كل مكان ، ولا يخالج الناس كلهم أدنى شك فى قبول الشروط التى اقترحها محمد على وأرسلها خليل باشا إلى الآستانة »[٢].

وقبل أن تصل صورة هذه الرسالة إلى السفارة الفرنسية ، قدم أمير البحر

(١) كدلڤين وبرو ص ٣٥٠ .
(٢) بوالكنت تأليف دون ص ٢٠ .

روسن وتقلد مهام منصبه ، ثم قدم أوراق اعتماده فى ١٧ فبراير سنة ١٨٣٣ . ولم يكن ده ڤرن قد أبلغ أن السلطان عدل عن رأيه مرة أخرى ، وأنه احتاط هذه المرة فأرسل رسولا خاصا إلى الروسيا يستقدم جيشها وأسطولها على الفور . وقدم أمير البحر الذى أصبح الآن سفيراً مزهوا بلباسه الجديد المحلى بالذهب البراق زهوه يوم لبس حلة الضابط الأولى . وخيل إليه أنه قد بدأ مهمته فى ظروف طيبة موفقة ، وكان لاينفك يقول : «نعم هذا أمر حسن يسرنى كل السرور . حقا إن هذا يبشر بالخير . » وأكبر ظننا أنه كان يعتقد أنه بلغ ما يصبو إليه ، حينما تلقى فى مساء اليوم الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٣٣ مذكرة من الباب العالى يقول فيها :

« لما كان صاحب الجلالة الشاهانية قد قبل المساعدة التى عرضتها عليه دولة الروسيا ، فإنه لا يشترط للصلح غير انسحاب الجيوش المصرية »[١] .

عند ذلك استشاط السفير غضباً ، فأرسل فى صباح اليوم التالى يطلب مقابلة الريس أفندى[٢] فى الحال . ومع أن دواوين الحكومة كانت كلها معطلة لأن اليوم يوم عيد ، فقد تمت المقابلة ؛ وهدد ده ڤرن بأن يطلب جواز سفره ، وثار ثورة اضطرت وزير الخارجية التركية أن يعده بأن يرسل على الفور تعليمات إلى السفارة الروسية و إلى أودسا وسباستپول بإلغاء طلب النجدة السابق إرساله . ولم يكتف الريس أفندى بذلك ، بل وافق على أن يعرض على روسن نص الشروط التى تقبل تركيا بمقتضاها أن تتفاوض مع محمد على[٣] .

وعاد السفير الفرنسى إلى مقر عمله مغتبطاً بالنتيجة التى وصل إليها فى

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٢) وزير الخارجية .
(٣) بوالكنت ص ٢١ .

حديثه الرسمى الأول مع وزارة الخارجية العثمانية . وخيم الضباب فى تلك الليلة على شواطئ البسفور ، فلما انقشع تكشف عن ثمان بوارج حربية روسية ألقت مراسيها فى الليل على بعد خطوات من « سراى فرنسا » . وفى ذلك يقول روسن لرئيسه : « لقد تملك قلبى وعقلى فى هذه اللحظة شعور من الألم لم أشعر بمثله من قبل . وكان الطريق الذى على أن أسلكه فى هذه الظروف واضحاً أمامى كل الوضوح ؛ فأمرت ترجمان السفارة أن يذهب إلى الباب العالى ليعلن أن تدخل الروسيا بهذه الصورة جعل وجود السفير الفرنسى أمراً لا داعى له ، ولذلك فإنى سأصدر أوامرى بعدم إنزال أمتعتى إلى البر »[١] .

وأيقن روسن أن بلاغه النهائى قد أوقع الرعب فى قلوب الأتراك ، بدليل ما جاء فى رسالته التى كتبها إلى باريس يقول فيها :

« و بعد ثلاث ساعات أقبل الرسل يقولون إنهم جاءوا من عند السلطان والسر عسكر ، يطلبون مساعدة فرنسا فى هذه المشكلة الخطيرة ، و إنهم يقبلو ن فى الحال رسميا ومن غير قيد ولا شرط أن يرفضوا مساعدة الروسيا إذا ضمنت لهم عقد الصلح على أساس القواعد التى اقترحها خليل باشا »[٢] .

و بعد أن أفاض روسن فى أهمية هذه الشروط ومقدار ما نزل عنه الباب العالى بموجبها ، أخذ يصف ما حدث بلغة ارتفع بها إلى أسمى درجة من الاعتداد بمنصبه فقال :

« ثم نظرت أخيرا إلى من كان حولى فألفيت ممثل إنجلترا كأنه غارق فى سباته ، ولكنه يريد أن يشترك فى أى عمل يمنع تدخل الروسيا فى المسألة .

---

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .

(٢) المصدر عينه ص ٢٢ .

وأما فى دور السفارات الأخرى فلم أجد إلا ترددا ، بل وجدت فى بعضها وبخاصة فى السفارتين النمساوية والبروسية أدلة الجفاء نحونا ظاهرة جلية » .

واستمر بعد ذلك فى وصفه جاعلاً نفسه مدار الحديث كما فعل من قبل فقال : « وكان لا بد من أن نصل فى المسألة إلى قرار حاسم ؛ ولاح لى أن هذا القرار يجب أن يكون القرار الذى توحى به مصالح فرنسا ومصالح معظم الدول ؛ وخيل إلىّ أن الغرض الأساسى الذى يجب أن نسعى إليه هو المحافظة على كيان تركيا واستقلالها ، باخراج الأسطول الروسى من مياهها . ولم أتردد قط فى الاضطلاع بالتبعة التى ألقتها الظروف على عاتقى بالرغم من العوائق والعواقب التى كان يخبئها لى المستقبل » .

واستمر يضرب على هذه النغمة نفسها فقال :

« وعلى هذا الأساس استقر قرارى . ولما تأكدت أن الرسولين يمثلان السلطات التركية حقا قلت لهما :

« إنى أقبل اقتراحكما ، وأضمن لكما باسم حكومة الملك أن يعقد الصلح بين الباب العالى وباشا مصر على الأساس المقترح ، بشرط أن تصدر الأوامر على الفور بنقض الأوامر الأولى الخاصة بطلب مساعدة الروسيا ، وبشرط أن يرحل الأسطول الروسى من البسفور بمجرد اعتدال الريح »[1] .

وأتبع السفير الفرنسى هذا القرار بثلاث رسائل ، بعث بإحداها إلى محمد على وبالثانية إلى إبراهيم باشا وبالثالثة إلى ميمو . ولم يكن فى مقدوره أن يرسل تلك الرسائل بالبرق لأن الآستانة فى ذلك الحين لم تكن تعرف مثل هذه الكماليات ؛ ولم يطلب روسن فى الخطاب الذى أرسله إلى إبراهيم فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .

وقف الزحف فحسب ، بل طلب إليه أيضاً أن يرتد إلى الحدود المصرية الجديدة ، لكى يعرف الناس أن الحرب التى اصطلوا نارها قد وضعت أوزارها حقا[١] . وكان الروح الذى كتبت به هـذه الرسالة روحا طيباً بقدر ما يمكن أن يكون فى مثل هـذه الرسائل من روح طيب . ولـكننا قد عرفنا من قبل أن إبراهيم لا يهمه قط ما يقوله القنصل الفرنسى أو غيره من الناس ، وأنه لا يعير هذا القول أدنى التفات ، وإنما الذى يهمه ويتأثر به هو رغبة محمد على . ولذلك دل روسن على جهله المطبق بالطبيعة البشرية حينما سلك مع الباشا هذا المسلك .

لـكن اغتباط أمير البحر بنجاحه الدبلوماسى فى إخضاعه الأتراك لإرادته ، جعله يظن أنه يستطيع أن يفرض إرادته أيضاً على المصريين . ولذلك أرسل خطابه إلى ميمو قنصل فرنسا العام بالإسكندرية مع رسول خاص ، وأمر الكابتن أوليفييه ياوره أن يسلمه إلى القنصل يداً بيد . وقيل له مع الأسف أن يبقى فى الإسكندرية ويشيع فيها ، إذا ما أظهر محمد على شيئاً من التردد : « أن الضباط الفرنسيين الذين فى خدمة الحـكومة المصرية سيعتزلون مناصبهم عند أول إشارة من فرنسا ، وأن أميرى البحر الفرنسى والبريطانى على اتصال دائم بمجرى الحوادث ، وأنهما قد تلقيا أوامر واحدة وحشدا قوتيهما وأصبحا متأهبين للظهور تجاه الشواطئ المصرية عند أول إشارة تصدر إليهما »[٢] .

وأكبر ظننا أن العالم ما كان ليعرف شيئاً عن هذه التعليمات الغريبة لو أن الذى أصدرها عرف حقيقة الاتفاق الذى تم بين خليل باشا ومحمد على . ولـكن روسن مع الأسف عجز عن معرفة ما يفهمه الباشا من هذا الاتفاق ، ولما هم ميمو

(١) المصدر عينه ص ٢٥ .

(٢) المصدر عينه وفى نفس الموضع .

بأداء واجبه بأمانة و إخلاص وأراد أن يُنَفِّذ ما حَمَّله السفير من التعليمات ، لم يوافقه محمد على بطبيعة الحال على ما أراد . فلما رأى الكابتن أوليفييه منه هذا التردد لم يسعه إلا أن يطيع الأوامر الصادرة إليه ، كما يقضى به الواجب عليه ، وأخذ يذيع ما أمر بإذاعته .

وبلغ ذلك مسامع الباشا فلم يطق صبراً عليه . ولما تأكد أن مصدر الإشاعة هو الكابتن أوليفييه أملى على ميمو خطاباً قال فيه : « إنه لا يستطيع قبول اقتراحات تعد بمثابة الحكم عليه بالموت السياسى ، وأنه يترك الأمر لله ، ويفضل الموت الشريف على النقيصة والعار »[1] . ثم أرسل بلاغاً نهائيا إلى الباب العالى يطلب إليه أن يتخلى له عن بلاد الشام جميعها ومنطقة أطنه ، وأمهله خمسة أيام ليقبل فيها طلبه ؛ فإذا لم يصله الرد فى خلالها صدرت الأوامر إلى إبراهيم بالزحف على الآستانة[2].

ثم استدعى بعدئذ خليلا باشا وشرح له ما حدث . ولم يفارقه فى هذا الشرح ما اشتهر به دائماً من الحيطة الشديدة وتعرُّف عقبى ما يفعل .

ولما عرف المندوب التركى حقيقة الأمر استطير لبه روعا ، وأكد أن الآستانة لم تغدر به ، ولم تنكث عهدها أو تنقض الأوامر التى أصدرتها له بنصها أو روحها ؛ وطلب أن يسمح له بإرسال رسول خاص إلى الباب العالى ليعرف جلية الأمر ؛ فوافق الباشا على هذا الطلب ، ولكنه لم يسحب بلاغه النهائى ، ثم كتب إلى إبراهيم بهذا المعنى :

« قد أنبتك عنى فى كل شىء ، وخولتك بذلك الحق فى أن توقع باسمى

---

(١) موريه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ٢٢٦ .

(٢) المصدر عينه جزء ٣ ص ٢٢٧ .

معاهدة للصلح إذا قبلوا شروطى ؛ فإذا تأكدت بالدليل القاطع أن هذه الشروط قد قبلت ، وجب عليك فى هذه الحال أن تنسحب إلى حدود البلاد التى أعطيت لى . أما إذا أصروا على حصرى فى داخل الحدود التى لا أراها محققة لرغبتى ، فعليك أن تواصل زحفك كما يتراءى لك ، متبعاً فى ذلك الخطة التى تراها ملائمة للظروف المحيطة بك »[١] .

ومما زاد الأمور تعقيداً أن باريس لم ترض عما فعله السفير الفرنسى[٢] ، إذ تبين لها أنه تخطى الحدود التى رسمت له . لكنها لم تنكر عليه عمله جهرة ، لأن الأسطول الروسى لم يبرح البسفور . وكان سبب بقائه أن السلطان قد بر بوعده فأبلغ سفير القيصر فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٣٣ أنه أصبح فى غير حاجة إلى معونته ، وأن انسحاب قواته أصبح الآن أمراً لازما[٣] ، وأظهر ده بونتيف منتهى اللطف شأنه فى ذلك كشأن سائر الدبلوماسيين الرسميين ، فهم رجال قد تخصصوا فى ذلك ومرنوا عليه ، فلم يرفض أن يسحب قواته ؛ وقال إنه دعى فلبى الدعوة ، وأنه لا يفكر قط فى البقاء حتى ينبو به موضعه . وفى الحق أنه وعد أن يبرح البلاد بمجرد اعتدال الريح . ويقول دون إن يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٣ كان يوما ريحاً ، وكذلك كان غيره من الأيام ، ولكن القائد الروسى لم ير هذا الرأى ولم يبرح بلاد الأتراك ، وأخذ السفير الروسى يبدى أسفه الشديد لأن الريح تعانده وتأتى بما لا تشتهى سفنه .

---

(١) دون فى كتابه السالف الذكر ص ٣٦ .
(٢) موريه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ٢٣٠ .
(٣) دون فى كتابه السالف الذكر ص ٣٧ .